

الاستعراض القاروني

أ. هلا العريفي

مترجمة وطالبة دراسات قرآنية

{المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملًا} [سورة الكهف-٦٤]

بهذه الآية عقب المولى عز وجل على قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف بعد ذكره أحداثها، فإن من عادة الأسلوب القرآني الأخاذ في سرد قصص السابقين وأخبارهم، أن تُختتم القصة بتقرير سنة من سنن الله تعالى في كونه، وتوكيد حقيقة جلية إلا أن غشاوة الهوى تُعمي بعض البشر وزخارف الدنيا تُغويهم، فكان هذا القرآن العظيم هدى وذكرى لكل ذي لب كي يتفكر، ويُبصر حقائق الأشياء وبواطنها ولا تغرّه ظواهرها {كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [سورة ص - ٩٢].

فمن الحقائق التي غابت عن صاحب الجنتين حتى جعلته يفتّر ويستطيل بنعمة الله على صاحبه الذي كان أقل منه رزقًا: اعتقاده دوام الحال التي كان عليها من وفرة الخير والمال، وحتمية البعث ولقاء الله تعالى للحساب والجزاء، وأنه لا تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة.

ولا يزال هذا النموذج المزهو بما أوتي من صنوف التّعيم الديني يتكرر بتعاقب الزمان، وباختلاف الحضارات والأمم، وقد خلد القرآن الكريم إحدى هذه النماذج حاكياً عن طغيان ابن آدم وبغيه حين تُفتح له الدنيا، وتُبسط له خيراتها وثرواتها، وأقام أمثلة تروي صراع الحق والباطل، وتمايز صفوف أصحاب البصائر النافذة في جواهر الأمور ومآلاتها، عن المنبهرين بزينة الحياة الدنيا الذين يُقلّبون أكفهم أسفاً ويقرعون أسنانهم ندمًا على فوات حظوظها.

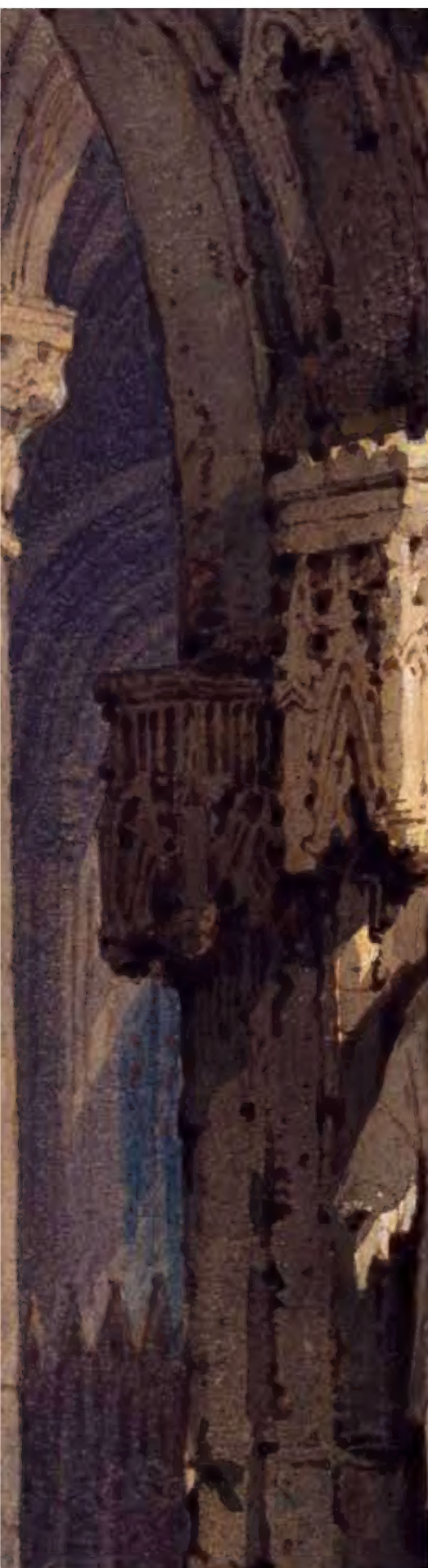
{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ} بداية مُججلة تهز وجدان التالي لأواخر سورة القصص حيث ذكرت قصة قارون، ومما ينقدح في الذهن هو التساؤل عن صورة هذا البغي، أكان بغي قارون كفره بالله تعالى؟ أم كان

بغيه في شيء آخر؟ لقد كان قارون ابن عم موسى ومؤمناً بدعوته، وعابداً تالياً للتوراة مُتغني بها حتى عُرف بحسن صوته (١)، ولكنه بغي المال حين يتعدى كونه قواماً لحياة المرء فيصير سبباً في اعوجاجها عن السبيل القويم -اللهم سلّم-

وحين افتتن قارون بهذا المال، سعى ليكون أثرى أثرياء ذلك الزمان؛ فمما قيل في معنى اسمه أنه لقب لُقّب به باللسان المصري القديم ويعني الجامع أو الحاوي للمال؛ فاللفظان المصريان: [كار، قار] يفيدان معنى الاحتواء والتخزين والحفظ (٢). لم تكن ثروة قارون شيئاً عادياً، إنما كانت حدثاً استثنائياً ملأ الأسماع والأبصار، تتناقله الألسن، وتهفو إليه النفوس، وتسرح فيه الأخیلة. يكفيك في وصف هذه الثروة قوله تعالى: {وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} فمفتاح خزائن أمواله تعجز أقوى الجماعات عن حملها، هذه المفاتيح؛ فما ظنك بالخزائن؟ (٣)

وإنه لشيء عَجَاب، أن يحظى قارون الذي هو من بني إسرائيل بهذه المكانة الاجتماعية المرموقة في المجتمع المصري، ويتنعم بكل تلك الممتلكات والكنوز الهائلة في زمن الطاغية فرعون المستعبد لبني إسرائيل، والذي آلى على نفسه أن يقتلهم ويُسردهم ويستحيي نساءهم، فما سر هذه الأموال الطائلة؟ مما أورده بعض المفسرين حول كنوز قارون أنها كانت نتاج تجارته وكده، أو أنها هبات وعطايا للمقربين من البلاط الملكي الفرعوني، حيث كان قارون عين فرعون على بني إسرائيل، ينقل إليه أخبارهم ويبوح له بأسرارهم وتحركاتهم؛ فهو بذلك عميل بارع يستحق التقريب والتجيب. وتبدأ فصول الخيانة والثورة على تعاليم موسى عليه الصلاة والسلام، وارتداء جبة الجبروت الفرعوني ليتحول قارون إلى عنصر ظلم إضافي لبني إسرائيل إلى جانب ظلم فرعون!

فمما تذكره الروايات الإسرائيلية عن قارون (قورح أو hcaróK) (٤) أن الحسد دب إلى قلبه



فتمرد على دعوة موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، وألب عليهما الناس محتجاً بزعمه أنّ موسى وهارون ليسا سوى رجلين عاديين من بني إسرائيل، وأنهما ليسا أحقّ بالاتباع منه. إنّهُ الفرور حين يتمكّن من الإنسان، فينازع الوحي، ويعترض على اختيار الخالق عزّ وجلّ سالكاً بذلك طريق إبليس حين قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}، ويظنّ أنّ ما يملكه من جاءه يخوّله من استحقاق مكانة لا يستحقها الآخرون. حتى تمادى به الأمر إلى مجاراة فرعون ووزيره هامان في تكذيبهم موسى عليه الصلاة والسلام واتّهامه بالسحر {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٢) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} [سورة غافر - ٣٢-٤٢].

وأثناء صمت بعض الأفواه عن صنيع قارون، نطق الصالحون من بني إسرائيل محذرين وناصحين: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٦٧)} وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} فهو عن فرج البطر الذي يذهل صاحبه عن شكر ربّه، فيقبل على هذه الدنيا وينكبّ على محبتها فتلهيه عن آخرته، ثمّ يدعو إلى أربعة أمور هي وصايا قرآنية هامة لكل ذي مال:

دعوة إلى البذل من ماله لآخرته فقد أُعطي ما لم يعط غيره مما يكون سبباً في تحصيله الجنان ورضا الرحمن، وأخبروه أنّهم لا يرشدونه بذلك إلى بذل كل ماله والامتناع عن الاستمتاع فيما أحله الله له وفيما لا يثلم دينه، وإنّما ينفق بعضه ويتمتع ببعض، وأنّ يحسن إلى خلق الله ويحسن إليه سبحانه بطاعته وعبادته كما أحسن المولى إليه بنعمه (٥)، وألا يفسد في الأرض بتكبره وعصيانهِ واشتغاله بالنعم عن المنعم (٦).

فهل رِق قلب قارون لذلكم الرفق وتلكم الحكمة في التصحّ؟

{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي}

«إنّ هذه الكنوز التي ترونها يا قوم، إنّما هي من كسبي وبجدي واجتهادي، وبسبب محبة الله لي



وما رزقنيها إلا لعلمي أني أستحقها! وما أشبه الليلة بالبارحة، فكم من {أوتيته على علم} باتت تتردد على الألسن باسم قوانين الاستحقاق وتضخيم الذات، وما ذلك والله إلا إخفاق في معرفة العبد ضعفه ونقصه، وكان مما أوصى به النبي -صلى الله عليه وسلم- ابنته فاطمة -رضي الله عنها- قوله: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به، أو تقولتي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» [رواه النسائي وصححه الألباني] يقول ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذا الحديث: «من ههنا خذل من خذل، ووفق من وفق، فحُجِبَ المخدول عن حقيقته، ونسي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطفى وعتا، فحقت عليه الشقوة، قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيِّطٌ أَنْ رَأَهُ اسْتَعَى} (V) [سورة العلق-7/6]

ثم جاء الردّ الإلهي ليسحق هذه الأنا المتعالية، وليقرر حقيقة لا يغفل عنها إلا جاهل برّبه وبنفسه: {أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} إن هذه النعم التي يرفل بها قارون ليست دلالة على محبة الله له؛ فقد أهلك الله من كانوا أشد منه ثراءً لما بطروا وجحدوا نعمة الله، كما أنه لا تلازم بين العطاء المادي ورضا الله عن الإنسان؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا لمن يحب.

وعقب تلك المقولة المترعة بتفخيم النفس، أدار ظهره عن الناصحين، ليخرج ذات يوم بأبهته: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ}، فحدقت به العيون، وتعاطمته النفوس، وإزاء هذا الظهور الخاطف للأنظار انقسم المؤمنون إلى قسمين: قسم ضعيف يقيئه، شديد تعلقه بزخرف الدنيا: {قَالَ

الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}، وكم أضحت {يا ليت لنا} تكثر في عالمنا اليوم الذي يعجّ بمظاهر الاستعراض القاروني المتفطرس، لتتساقط أمامه بعض القلوب نادية حظوظها، ومائحة: {إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}! فإن وسائل التواصل الاجتماعي التي بين أيدينا قد تحولت من كونها وسائل للتواصل المحمود إلى معاول هدم للبيوت، وأدوات تفكيك للأسر، ونوافذ للتباهي والتفاخر بكافة أشكال الممتلكات والماركات، ومساحات لإعلانات المشاهير وتجارتهم بلا مبالاة بجواز هذا المال المجني من ورائها، وصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين قال: {لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالُ، أَمْنَ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ} [رواه البخاري]. ولا يزداد المتفرج على هذا الاستعراض إلا تيهًا في دوامة الاستهلاك وتضييقاً للأوقات وإطلاقاً للبصر.

أما القسم الآخر، هم الذين لم يفرّهم تبختر قارون ولا ثراؤه، هم ذوو البصيرة الذين عرفوا حقيقة الدنيا وباطنها ولم يأسرهم بريق ظاهرها؛ فقد أوتوا من العلم ما جعلهم يميزون الفاني عن الباقي؛ فكانوا يحذرون غيرهم ويثنونهم عن تمني ما كان عليه قارون من رزق مادي وحرمان من الرزق الأعظم وهو رزق الإيمان والعمل الصالح: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}، وفي هذه الآية دلالة على فضيلة العلم، وكونه من المعينات على الثبات أمام الفتن بإذن الله تعالى.

{فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضُ} لقد كان الثمن الذي دفعه قارون باهظاً جداً، لم يدفعه من كنوزه، بل دفع نفسه فابتلعها الأرض التي تكبر فوقها، جزاءً وفاهاً.

وهكذا تطوى قصة رجلٍ أوتي ثراءً فاحشاً إلا أنه فقير القلب من معرفة فضل ربّه عليه، وواجب شكره بالقول والعمل. لتبتدئ للمتدبر في آيات الله بعد مشاهد تلك القصة، حقيقة لا تقبل الشك لتعيها أذن واعية: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}.. لا يريدون علواً بأموالهم وزيّتهم؛ فتصرف أنفسهم عن الدار الآخرة ويصرفون غيرهم عنها، ويفسدون في الأرض بعد إصلاحها.

وتختتم قصة قارون في سورة القصص بخاتمة مهيبة تقف لها إجلالاً مشدوهاً من عظمتها: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} بعد أن عرضت نموذجاً للعلو في الأرض بالجاه والسلطان ليذكر الإنسان حين يبغى ويتكبر بما أوتيته: أن مصيره الفناء!

{ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}.

المراجع:

(٥) تفسير القرطبي- سورة القصص.

(١) تفسير الطبري - سورة القصص.

(٦) تفسير السعدي - سورة القصص.

(٢) نشوء البيان - دراسات قرآنية لغوية

(٧) طريق الهجرتين ص ٦١ - طبعة دار الفوائد.

تاريخية/احتمالات في معنى اسم قارون

(٨) تفسير ابن عاشور - سورة القصص.

<http://mbtda.com/alqab/qarun.php>

(٩) تفسير ابن كثير - سورة القصص.

(٣) تفسير السعدي - سورة القصص.

(10) Korah: The Rebel of the Bible By Yehuda Altein | Chabbad Organization

(٤) هنالك خلاف عما إذا كان قورح هو

(١١) نظرات في سور القرآن | فايز السريح ،

سورة القصص ص ٢٣.

قارون المذكور في القرآن الكريم، فقورح

ابن يصهار المذكور في التوراة كان ثائراً

على دعوة موسى وهارون ولم يذكر عنه

الفنى، إلا إن إحدى المخطوطات التلمودية

القديمة تذكر أن قورح كان رجلاً فاحش الثراء

وقد عاقبه الله بأن خسف به وبممتلكاته

الأرض (المصدر: صحيفة أورشليم):

<https://www.google.com/amp/s/m.jpost.com/jerusalem-report/jewish-world/the-people-and-the-book-korah-and-material-wealth/amp>

